أشكال البوح والاعتراف في الكتابات النسوية

د. فيروز رشام
جامعة البويرة (الجزائر)

الملخص:
يتناول هذا البحث أشكال تجلي السيرة الذاتية في الكتابات النسوية سواء بطريقة مباشرة ومعلنة أو بطريقة خفية ومتضمنة، وكذا تبعات البوح والاعتراف على الكاتبات والثمن الذي يدفعنه مقابل جرأتهن في التحدث الصريح عن حياتهن الخاصة، وذلك تحت محورين أساسيين هما: أولا- السيرة الذاتية الخفية والمعلنة، وثانيا- البوح والاعتراف بأي ثمن؟

الكلمات المفتاحية: السيرة الذاتية، البوح والاعتراف، الكتابة النسوية.

Résumé :
L’objet de cet article est les formes de présence de l’autobiographie dans l’écriture féminine et le prix à payer pour avoir oser d’écrire des confessions.

Mots clé : L’autobiographie, confessions, l’écriture féminine.

1- **السيرة الذاتية الخفية والمعلنة:** ليس هناك إجماع على تعريف محدد للسيرة الذاتية، ذلك لأنها نوع حديث لا يزال في مرحلة التشكل والتكوّن حسب رأي "جورج ماي" الذي يرى بأنه نوع «من الحداثة بحيث لا يمكن أن نعتبره جنسا أدبيا بحق»[1]، فقد خلص من خلال دراسة حول هذا الجنس إلى أن حداثته وكونه بصدد التكون أو على وشك التأسيس يعني «أن الأوان لم يحن بعد لكي نعرّفه على غرار الأجناس الأخرى»[2]. لكن باحثا آخر في هذه المسألة يخالفه في الرأي، وهو "فيليب لوجون" الذي يؤسس دراسته حول السيرة الذاتية على تحديد تعريف لها على وجه الخصوص.

ويعد تعريف "لوجون" للسيرة الذاتية Autobiographie مرجعا شائعا في تعريف هذا النوع والذي حدده بكونه: «حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة»[3]. وهو تعريف اعتبره "جيرار جينيت" «تعريفا أرسطيا صرفا، ولا زمنيا بشكل صارم»[4] لأنه تعريف يؤلف بين سمات مضمونية (مصير فرد حقيقي)، وسمات صيغية (سرد بضمير المتكلم استرجاعي)، وسمات شكلية (نثر). وبالمقابل وافق "جينيت" "لوجون" على اعتباره السيرة الذاتية جنسا حديثا نسبيا، حتى أن أرسطو لم يحددها بتاتا[5].

يعود ظهور مصطلح "السيرة الذاتية" «إلى حدود سنة 1800م. وذاع سنة 1830 للتعبير عن البعد الشخصي الظاهر في الكتابة»[6]. وهو نوع لم يكن معروفا ولا متداولا قديما، وقد تشكل تدريجيا في العالم الغربي منذ عصر النهضة خاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وتعد "اعترافات" Confession جان جاك روسو (التي كتبها بين 1765-1770 والمنشورة في 1782-1789) البداية الفعلية لظهور هذا النوع[7].

ومن بين ما يجعل السيرة الذاتية مستعصية على التحديد، كونها تلتقي مع فنون كثيرة أخرى تهتم بالحديث عن حياة المؤلف، ما يؤدي لتداخلها معها إلى حد بعيد[8]، كالمذكرات، اليوميات الخاصة، كتب الوقائع، الاعترافات، الرواية، السيرة، المقالة، وحتى القصيدة الشعرية في بعض أشكالها. وحسب "لوجون"، فإن تعريفه الذي قدمناه آنفا، لا يناسب الفنون الأخرى المشابهة للسيرة الذاتية، لأنها لا تستجيب لكل الشروط التي يوجبها هذا التعريف، والتي تتمثل أساسا في أربعة عناصر هي:

«1- شكل اللغة: أ- حكي.

ب- نثري

2- الموضوع المطروق: حياة فردية، وتاريخ شخصية معينة.

3- وضعية المؤلف: تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه إلى شخصية واقعية) والسارد.

4- وضعية السارد: أ- تطابق السارد والشخصية الرئيسية

ب- منظور استعادي للحكي»[9].

اشترط "لوجون" على السيرة الذاتية كي تكون كذلك فعلا، أن يكون فيها تطابق بين المؤلف والسارد والشخصية، وذلك «من خلال استعمال ضمير المتكلم، وهو ما يطلق عليه جيرار جينيت "السرد القصصي الذاتي"»[10]. وما ذهب إليه "تودوروف" ليس ببعيد عما ذهب إليه "لوجون"، حيث يرى هو الآخر أن «السيرة الذاتية تعرّف بهويتين اثنتين: هوية الكاتب مع السارد narrateur، وهوية السارد مع الشخصية الرئيسية (البطل)، والهوية الثانية هذه حتمية: إنها تلخص كلمة auto "الذات" التي تسمح بتمييز السيرة الذاتية عن السيرة Biographie أو المذكرات Mémoires»[11].

لماذا يكتب الشاعر أو الكاتب سيرته الذاتية؟ وما الذي يجعله بحاجة للحديث عن ذاته وحياته؟ من الواضح أن المبدع عندما تنضج تجربته يصبح بحاجة إلى كتابتها كما يحتاج لكتابة قصيدة أو قصة أو رواية تخمّرت فكرتها في ذهنه. فالسيرة الذاتية ليست سوى «تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج، وأصبحت في نفس صاحبها نوعا من القلق الفني، فإنه لا بد أن يكتبها»[12]، وقد يشعر بوجود أشياء مهمة يريد قولها لقرائه عجزت نصوصه عن البوح بها. أو ببساطة، يكتبها رغبة منه في أن يشارك الآخرين تجربته كما شاركهم إبداعاته. وربما يكتبها أيضا ليبرر أشياء ما، أو ليرد على تهم، أو ليعلل مواقفه واختياراته، أو ليقدم شهادته بخصوص أمر معين، وقد تكون هناك أسباب أخرى يخفيها في ذاته[13].

إن الغاية التي تحققها السيرة الذاتية أساسا هي «تخفيف العبء على الكاتب بنقل التجربة إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها»[14]، وهذا يعني أن اشتغالها لن يكون على صعيد فني فقط، إنما على الصعيدين الشخصي والاجتماعي أيضا. والسيرة الذاتية حسب "لوجون" «هي بلا شك فعل اجتماعي أكثر من كونها شكلا أدبيا forme littéraire. فـــ "الأنا" الذي يتوجه إلى قارئ غير معروف، ليس من صنع الخيال بل هو إنسان حقيقي يوقع باسمه التزاما بقول الحقيقة –إلى حد ما-»[15]. وبذلك تكون السيرة الذاتية قد جمعت بين نمطين من الكتابة «التدوين التاريخي والحياكة الفنية»[16].

أما عن السيرة الذاتية في الأدب العربي[17]، فيرى البعض أنها لم تظهر كجنس أدبي حديث، مصطلحا ومفهوما، سوى في عشرينيات القرن العشرين، حيث كان كتاب "الأيام" (1929) لطه حسين أول نص أدبي تمثّل مفهوم السيرة الذاتية وإشكاليتها[18]، وعليه فإن تاريخها «لا يختلف عن تاريخ الأجناس السردية الأخرى شأن الرواية والقصة القصيرة. فهي جنس مستحدث ظهر بعد الرواية، ونتج عن عامل المثاقفة بحكم العلاقة الوطيدة بين الثقافة الأوربية والثقافة العربية»[19].

وتتخذ السيرة الذاتية في الأدب العربي أشكالا عديدة منها: شكل اليوميات، وشكل المذكرات، وشكل أدب الوقائع، وشكل الرسم الذاتي، والشكل الروائي[20]، وغيرها. لذلك فإن تعريف "لوجون" لها قد لا يستجيب بالضرورة للشكل الذي اتبعه بعض الكتاب العرب. وهذا ما توصل إليه الباحث "محمد الباردي" في دراسة أجراها حول مجموعة من النماذج السير ذاتية العربية، إذ وجد أن تعريف "لوجون" فعلا لا يتوافق مع أشكال عديدة من السيرة الذاتية الموجودة في الأدب العربي.

وقد انتهى الباحث إلى اقتراح تعديل على تعريف "لوجون" للسيرة الذاتية، يتناسب مع ما هو موجود في الأدب العربي، يكون بالشكل الآتي: «إن السيرة الذاتية هي حكي استعادي نثري بأشكال سردية متنوعة، يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص والعام وذلك عندما يركز على حياته الفردية والجماعية وعلى تاريخ شخصيته الجزئي أو الكلي»[21].

وبخصوص السيرة الذاتية النسوية، وباعتبار دخول المرأة إلى عالم الكتابة كان في بداياته خجولا، وكان في أغلبه تعبيرا عن معاناتها في المجتمع الذي تحكمه ثقافة الذكور، فإن معظم نصوصها تحيل بشكل أو بآخر إلى حياتها الواقعية وشخصيتها الحقيقية بطريقة مباشرة أو مضمرة لتصب في النهاية في قالب الرواية حتى وإن كانت قد بدأت الكتابة بالمقال أو القصة أو سوى ذلك. فاليوم تعد الرواية من أكثر الأشكال الأدبية استقطابا للنساء حيث «يمكن اعتبار معظم كتابات المرأة سواء السردية المكتوبة أو المحكية الشفوية إلى جانب أشكال المذكرات واليوميات وكتب الرحلات والسير والمقامة، أشكالا تعبيرية ساهمت في خلق جو لتأسيس الجنس الروائي»[22].

الرواية النسوية في الغالب ليست سوى قناعا لسيرة ذاتية غير معلنة، فعلى لسان الشخصيات تعبر المرأة عن همومها النفسية والاجتماعية وتبث آراءها ومواقفها الأكثر تحررا وجرأة محتمية بشخصيات تخييلية. وتعتبر الكثير من روايات النساء "روايات سير ذاتية" أو "السيرة الذاتية الروائية" وقد «وصفت كتابة المرأة بالتدفق الأوتوبيوغرافي لكون إبداعها يعتمد باستمرار على العودة إلى الطفولة لإعادة حكيها(...) من هنا اعتبرت معظم النصوص الإبداعية النسائية نصوصا سير ذاتية، وهذا ما جعل معظم المقاربات النقدية تحاول البحث في كل نص نسائي عن السيرة الذاتية فيه»[23].

ورغم إنكار بعض الكاتبات التوجه السير ذاتي في كتاباتهن غير أن هيمنة الذات في الكتابة تفضح رغبتهن الجامحة في الكتابة عنها. أما كتابة السيرة الذاتية بشكل مباشر وعلني فالراغبات في كتابتها كثيرات لكن الجريئات على ذلك قليلات، لذلك يفضلن كتابتها بشكل متخفي يحميهن لاحقا من النقد والتشهير، وهنا تجدر الإشارة أن الرجال أيضا لا يجرؤون كثيرا على كتابة السيرة الذاتية ويخافون منها.

قلة من النساء يكتبن عن حياتهن ويعبرن عن آرائهن بشكل مباشر كما فعلت "نوال السعداوي" في مذكراتها، أو "جمانة حداد" في كتابها "هكذا قتلت شهرزاد". ويتخذ الحضور السير ذاتي في كتابات النساء عدة أشكال مضمرة مثل المذكرات، الاعترافات، المقالات، والخواطر. أما كتابة السيرة الذاتية بشكل مقصود فهي حالات قليلة باعتبار هذا النوع الأدبي غير مرحب به كثيرا في الثقافة العربية حتى أنه أثار الفقهاء! فالفتاوى التحريمية تطال حتى كتابات المرأة، ولا غرابة، فقد أفتى مفتي الديار المصرية مرة أنه لا يجوز للمرأة أن تؤلف كتابا في أدب الاعترافات تعترف فيه بما أمر الله بستره بحجة الحفاظ على كيان الأسرة والعلاقة الزوجية[24].

تستقطب مرحلة الطفولة الكاتبات بشكل لافت حيث ترتكز عليها سيرهن الذاتية لهذا «حين نقرأ السير الذاتية الأنثوية، فإن أول عالم يطالعنا هو محكي الطفولة، الذي يهيمن بشكل كبير على كل الكتابات النسائية، وهو – هنا - لا يمثل ديباجة تقليدية بقدر ما يمثل بناءً قائما بذاته. فمحكي الطفولة لا يرصع البداية فقط، بل إنه يبني السيرة الذاتية النسائية»[25].

لن نحدد هنا الكتابة السير ذاتية بمفهوم "فيليب لوجون" الدقيق وسنوسعها لتشمل كل الكتابات التي تعلن فيها المرأة بشكل صريح أنها تتحدث عن نفسها في أي تجربة أو محطة من حياتها كما فعلت "جمانة حداد" في كتابها "هكذا قتلت شهرزاد: اعترافات امرأة عربية غاضبة" حيث جسدت بشكل ممتاز الغضب المتأجج في صدور الكاتبات حيال وضع المرأة في المجتمع العربي. ليس هذا الكتاب بسيرة ذاتية بالمفهوم الأجناسي مثلما يفهم من ذلك كنوع أدبي، إنما هو كتاب مباشر وصريح بثت فيه أفكارها وآراءها دون تخفي وراء حجاب. تكلمت الكاتبة بضمير "أنا" معلنة منذ البداية أنها ستقص حكايتها، وقد قصتها معترفة بأشياء في منتهى الحميمية نادرا ما تجرأ عليها امرأة في كتاب

اعترافات[26]. وصبت غضبها في الكتاب متحدثة عن طفولتها، وشعرها الإيروتيكي، عن مجلتها الإيروتيكية التي أسستها والمسماة "جسد"، عن الجنس والجسد المدان في ثقافتنا خاصة جسد المرأة، معلنة غضبها وتمردها.

بين المذكرات والاعترافات والسيرة الذاتية تتنوع كتابات النساء المستعدات لتسريب أشياء من حياتهن الخاصة إلى العامة، وكاتبات هذه الأنواع فعلا قليلات ويمكن فهم خوفهن منها، لذلك السيرة الذاتية ضعيفة كمًّا وكيفًا في الثقافة العربية بسبب ردود الفعل المُدينة للمرأة على هكذا نوع من النصوص.

كتبت "نوال السعداوي" عن حياتها كما لم تكتب كاتبة أخرى، فإضافة إلى عشرات المقالات السير ذاتية الموجودة في ثنايا كتبها، خصصت خمسة كتب كاملة للحديث عن حياتها وهي: "أوراقي.. حياتي" في ثلاثة أجزاء، "مذكراتي في سجن النساء" و"رحلاتي في العالم". في كتاب "مذكراتي في سجن النساء" تحكي نوال السعداوي قصة سجنها من يوم 06 سبتمبر 1981 إلى غاية 25 نوفمبر 1981، من لحظة اعتقالها إلى لحظة إطلاق سراحها، مع وصف وضع السجن والسجينات وكيفية تحقيق المخابرات معها، وكلها حوادث من واقع حياتها.

هناك أيضا نوع آخر من النصوص تكتبه النساء كثيرا، ليس بالشعر ولا بالقصة أو الرواية، إنما هي المقالات التحليلية أو الخواطر التأملية التي تُجمع في كتاب بعدما تكون عادة قد نشرت هنا وهناك في الصحف أو المجلات أو تم تقديمها في المؤتمرات، وهي مقالات بلا إحالات في الغالب ولا مراجع تذكر رغم زخمها بالمعلومات. بعض الكاتبات عندما يبلغن درجة عالية من الوعي والنضج يصبحن قادرات على الاسترسال في الكتابة عن عدة مواضيع دون العودة بشكل مكرر إلى الكتب. وفي الحقيقة الكتابة الإبداعية هي تلك التي تكون كاملة من تأليف الكاتبة وليس من توجيه الكتب وهي مرحلة قلما تبلغها الكاتبات وحتى الكتاب.

تلك المقالات والخواطر ليست ببحوث علمية بالمعنى الأكاديمي لكنها قراءات وتحليلات، وأحيانا مشاركات في مؤتمرات أو مواقع إلكترونية كما تفعل نوال السعداوي في معظم كتبها، حيث تجمع عدة مقالات متنوعة عن مواضيع وأحداث مختلفة ومتفرقة في كتاب واحد، بعضها رد أو تعليق أو تحليل لظاهرة أو تعبير عن رأي أو موقف قد يكون من حياتها الخاصة مع هيمنة موضوع المرأة دائما مثل كتاب "المرأة والغربة". أو كما فعلت "رجاء بن سلامة" التي جمعت عدة مقالات في كتابها "نقد الثوابت: آراء في العنف والتمييز والمصادرة " حيث قالت عن هذه المقالات أنها ليست بأبحاث أكاديمية غير أنها لا تخلو من محاولة البرهنة وعرض الحجج وقد نشرتها رغبة في نشر ثقافة حداثية جديدة[27].

من بين كاتبات المقالات أيضا الكاتبة هيفاء البيطار التي أغواها كتاب "غرفة تخص المرء وحده" لــــــــ "فرجينيا وولف" التي أجرت دراسة نقدية على أكثر من ثلاثين رواية نسائية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ووجدت أن الشخصية الرئيسية في رواياتهن هي امرأة مجنونة، وأن الكاتبات يختبئن وراء شخصيات رواياتهن وأنهن ينفسن عن قلقهن وإحساسهن بالظلم والاختناق من المجتمع الذكوري عن طريق الشخصية الرئيسية، فقامت بحذو حذو "فيرجينيا وولف" وبحثت في القواسم المشتركة في الكتابات النسائية لكاتبات عربيات (شمل البحث أكثر من سبعين رواية كما أشارت الكاتبة) خلال نصف القرن الماضي، وقد توصلت إلى استخراج القواسم المشتركة بينها والتي تتلخص في ثلاث نقاط هي[28]:

أولا، تمتاز معظم هذه الكتابات بخرق طوطم الجنس ومحاولة تحطيم القيود الذكورية المفروضة على النساء والمطالبة بالمساواة مع الرجل والتحرر من وصايته. فحاجز الجنس هو الخرق الأول للكاتبات العربيات لكن نسبة غير قليلة من الكاتبات تعاملن مع موضوع الجنس كشيء مستقل قائم بذاته ومنفصل عن الحياة فكانت ثورتهن شكلية، مجرد كتابة جريئة، مستفزة، وأحيانا فاحشة ومقززة، حتى أن بعضهن يعتقد أن مجرد كتابة جنسية جريئة هي شهرة وإبداع (كمقاطع الوصف الحسي للأعضاء التناسلية) في حين أن الجنس جزء من نسيج الحياة ومدخل لكل التعقيدات البشرية

ومن هذا المنظور يجب أن تكون الكتابة عنه. فقد سقطت الكاتبات في غواية اللغة كما لو أن اللغة ستنتقم للنساء وتعوضهن عن سنوات القمع والصمت لذا تأتي نصوصهن مغرقة بالحسية وتصبح اللغة مجرد تنفيس عن الكبت والغضب وهذا لا ينفي وجود كاتبات اخترقن حاجز الجنس بإبداع.

ثانيا، يتعلق الأمر بنظرتهن إلى الرجل المثقف الذي تتفق معظم الكاتبات في النظر إليه كخائن ومدّع وازدواجي الشخصية يتصرف عكس ما يدعي، فهو رغم ادعائه التحرر إلا أنه لا يقدم أبدا على الزواج من امرأة متحررة أقام معها علاقة!

ثالثا، يشتركن في نظرتهن إلى النقد الأدبي الذكوري لكتاباتهن، فمعظمهن غير راضيات عما يكتبه النقاد عن أعمالهن وأن النقاد الرجال يتعمدون التقليل من القيمة الإبداعية لأدب المرأة كأنما كتابتها أدنى من كتابة الرجل.

2- البوح والاعتراف: بأي ثمن؟

دخول المرأة إلى عالم الكتابة هو نوع من المواجهة مع التاريخ، ومع العادات والتقاليد أيضا. وهي خطوة أنهت بها زمن الحكي الذي ينسب لها، لتدخل زمن الكتابة الذي احتكره دائما الرجال. لكن هذه المهنة الجديدة التي تريد احترافها محفوفة بالمخاطر، وسوف لن تخرج منها سالمة دائما، وهو ما أدركته العديد من النساء اللواتي دخلن عالم الكتابة في العالم العربي منذ بدايات القرن الماضي، حيث اضطرت أكثر من كاتبة لاستخدام اسم مستعار أو اسم مجهول كما لو كانت قد ارتكبت جريمة[29].

ولم يمكن مصير الكاتبة "مي زيادة" «المؤلم يختلف عن مصير أي امرأة رائدة حاولت أن تغير نظرة المجتمع الرجولي المتخلف للمرأة. ولم يختلف مصيرها كثيرا عن النساء الذكيات (الساحرات الحاكمات) اللائي أتهمن في العصور الوسطى بالجنون أو الفسق أو السحر. بل لم يختلف مصيرها كثيرا عن مصير كثير من النساء الذكيات في عصرنا الحديث، اللائي لا يجنين من وراء ذكائهن إلا الوحدة القاتلة أو الاتهام بالهستيريا أو الشذوذ»[30].

كانت المرأة تتعرض لمهاجمات شرسة كلما رفعت القلم للكتابة، فتنهال عليها سيول من الشتائم والاتهامات، وقد يمنع كتابها من النشر أو يصادر كما حدث مع عديد من الكاتبات العربيات. وقد يصل الأمر إلى السجن والنفي وحتى التهديد بالقتل[31]. فنحن في ثقافة ترفض سماع صوت المرأة المفكرة بغض النظر عن محتوى الفكر الذي تناضل من أجله، فسواء كتبت في الأدب أو الدين أو السياسة فالأمر شتان، لأن المشكلة ليست هل أصابت المرأة أو أخطــأت في تقديرها للأمور، إنما خوضها في الكتابة في حد ذاته يبدو فعل اختراق لتقاليد الكتابة التي كانت دائما حكرا للرجال.

المسألة برأي نوال السعداوي مسألة حرية تعبير، وحرية تفكير أيضا. ولا يمكن للفكر أن ينمو بغير حرية لأن «الحرية هي الوجه الآخر من العدالة، وإذا غابت الحرية غابت العدالة. ولهذا يضمر الفكر العربي، وتصيبه أمراض الهزال من شحوب وركود وجحود أو تراجع إلى الوراء»[32]. فالفكر العربي خائف، والمفكر العربي خائف «وخوف المرأة أشد من خوف الرجل، لأن حرياتها أقل، وحقوقها العامة والخاصة أقل، وبالتالي فإن عقابها أشد في القوانين الوضعية»[33].

ولهذا تدفع المرأة في الثقافة العربية ثمن الكتابة. وكما تقول نوال السعداوي التي تعد من الكاتبات العربيات اللواتي دفع ثمن الكتابة غاليا: « الحرية لها ثمن، تدفعه المرأة المتحررة من صحتها وراحتها ونظرة المجتمع العادية لها. لكن المرأة أيضا تدفع ثمن العبودية والخضوع من صحتها وشخصيتها ومستقبلها. والأفضل للمرأة أن تدفع الثمن فتكون حرة، على أن تدفع الثمن وتظل عبدة... إن المرأة العربية مطالبة من أجل التحرر أن تتخذ مواقف شجاعة في حياتها الخاصة والعامة. عليها أن تجعل من نفسها إنسانة، لها عقل يفكر وينتج ويخلق، قبل أن يكون لها مهبل ورحم»[34].

وهذا ما حدث فعلا، ففي أواخر القرن العشرين استطاعت بعض النساء العربيات الخوض في المسائل الفكرية والفلسفية بكل جرأة، وقرأ الرجل العربي رواياتهن وكتبهن النقدية للتقاليد القمعية الممارسة عليهن، وهي اجتهادات تعرضت لمحاولات القمع والإجهاض. وهنا تجدر الإشارة أن الكتابات الرجالية المناصرة للمرأة هي أيضا ملاحقة ومطاردة ويلقى أصحابها الرفض والاضطهاد.

ومع أن المرأة قد تجد نفسها وحيدة في ساحة المعركة تواجه جيوشا من الأقلام الذكورية وتاريخا بأكمله من الكتابات المحاكة ضدها، فإن هذا يجب أن لا يحبطها فتستسلم وتستقيل من الكتابة، لأن مستقبلها في يدها ولا يمكن أن تتوقع من المجتمع الذكوري الذي ألغاها قرونا أن يمنحها التقدير والاحترام من تلقاء نفسه حبا فيها أو شفقة عليها.

لكن ليست كل كتابات النساء في صالح المرأة، فقد يحدث أن تكتب المرأة ضد أنوثتها وتنتج خطابا ذكوريا بامتياز، «فأن تكتب المرأة عن قضيتها، لا يعني ذلك أنها وعت ذاتها، وهي معبرة عن هذه القضية بدقة، فقد تأتي كتابتها النزقة والانفعالية دليلا على لاسويتها في نظر الرجل الذي يعتبرها هكذا، أو تعبر هذه الكتابة عما يجعلها امرأة وفق مقاييس الرجل الحريص على رجولته، وربطها به، وعلى أكثر من صعيد»[35].

إن دخول المرأة إلى عالم الكتابة سيتيح لها الفرصة لتصحيح صورتها وبناء صورة جديد وإيجابية. فصورة المرأة في الكتابات العربية المعاصرة[36] كانت ولا تزال تكرس خطاب الذكورة. ولا يخفى على أحد أن المرأة معروضة في أكثر الخطابات الدينية والشعبية[37] كمخلوق من درجة ثانية، وغاوية، وصديقة الشيطان. وهي تتعرض في الخطاب الديني كما الخطاب الإعلامي[38] لأشد الإساءة والإهانة، لأنه لا يراها سوى جسدا يشتهى يجب حجبه، أو جسدا فاتنا يجب عرضه. وهي كلها خطابات تنتقص من عقلها وتحاول إلغاءه تحت اسم الدين أو الثقافة أو الهوية.

سيقال بأن المرأة لا تعنيها الكتابة، وأنها هي من سبقت لتقديم نفسها كمتعة جسدية حصرا، وظلت لقرون تراوغ الرجل من هذا المنظور فقط، وأنها لم تهتم بعقلها قدر اهتمامها بجسدها، وهذا قد يكون صحيحا، لذلك فإن «قلة عدد النساء والفتيات المهتمات بعقلهن أكثر من رموشهن وأظافرهن، ظاهرة موجودة في المجتمع. وهي ظاهرة لا تدل على أن المرأة ناقصة العقل. ولكنها تدل على أن التربية التي تتلقاها البنت منذ طفولتها تخلق منها امرأة تافهة التفكير. فالبنت العربية تتدرب من الصغر على أن تنشغل بجسمها وملابسها وشكلها أكثر من اهتمامها بعقلها وذكائها»[39].

لكننا اليوم نشهد على جيل جديد ومميز من النساء الكاتبات اللواتي ينافسن الرجال في مناقشة المسائل الفكرية والعلمية الأكثر تعقيدا. وهو جيل يدرك جيدا أن مقولة "صوت المرأة عورة" ليست سوى حيلة لإسكاتها أبد الدهر، وأن القهر بلغ حدا ما عاد يحتمل لذلك أعلنت الثورة ودخلت معركة الكتابة، ويوميا تولد أسماء نسوية جديدة، وكتابات جريئة وذكية، فأصبح الرجل يسمع صوت المرأة المفكر، وهو صوت عقلها الذي بدأ أخيرا يتعرف عليه.

بعض الكاتبات الجريئات يكتبن بلغات أجنبية أو من بلدان أجنبية خارج أوطانهن الأصلية أو يستخدمن أسماءً مستعارة حماية لأنفسهن. فقد نشرت الكاتبة المصرية "ملك حنفي ناصف" في نهاية القرن 19 باسم "باحثة البادية"، ونشرت لاحقا الكاتبة المغربية "مليكة الفاسي" باسم "باحثة الحاضرة"، كما نشرت اللبنانية "فدوى طوقان" باسم "دنانير"[40]. لا شك «أن المرأة الكاتبة تدفع ثمنا لجرأتها في اقتحام عالم غير مصنوع من طرفها أو من أجلها، وهذا ما جعل معظم الكاتبات ينزوين في وحدة قاتلة حين يتعذر عليهن التواصل مع المجتمع، أو ينغلقن في حالات الاكتئاب والأزمات النفسية كما حدث مع "مي زيادة"»[41].

تعرف النساء العربيات جيدا ما هو ثمن الكتابة في الثقافة العربية ومع ذلك يجازفن، وقد عبّرت عن هذه المسألة الكاتبة والصحفية "جمانة حداد" مؤسِسة مجلة "جسد" الصادرة باللغة العربية والتي تعرضت للإهانة والسب والشتم بسبب مجلتها وحتى لتهديدات بالقتل[42] بقولها: «أن تكوني امرأة تكتب في بلد عربي يعني أن تمارسي على نفسك رقابة ذاتية، لهي أقسى وأشرس وأشد اعتباطية وظلما من ألف رقابة "رسمية" تفرض عليك فرضا من الخارج(...) أما أن

تكوني امرأة تكتب بصدق وشفافية في بلد عربي، وبلا أي مساومات (كمساومة العائلة، مساومة الدين، مساومة التقاليد، مساومة المجتمع، مساومة الرقابة)، فيعني أن تكوني، فوق كل ما سبق، وقحة و"قدرية" وشجاعة»[43].

الكاتبة "ألفة يوسف" من بين الكاتبات المنتقدات أيضا، واللواتي أُمطرن بوابل من الشتائم وعرفن حملات تشويه وتكفير سواء في المنابر الإعلامية أو في مواقع التواصل الاجتماعي. منذ البداية كانت تعرف الكاتبة أي نوع من القراء ستواجه مع العلم أن المقروئية أضعف ما تكون في العالم العربي لكن يكفي أن يلفت أحدهم الأنظار إلى ما كتبت حتى تتبعه جيوش من المتحمسين الذين لا قرؤوا ولا فهموا شيئا مما كتبته بما في ذلك المُشهر الأول.

في مقدمة الطبعة الثانية لكتابها "حيرة مسلمة" قالت "ألفة يوسف" بأنها كانت تتوقع أن يثير الكتاب ردود فعل مختلفة خاصة وأن اشتغال المرأة بقضايا الدين أمر حديث لكن ما فاجأها هو اتهامها بالدعوة للشذوذ الجنسي في تناولها لقضية الجنسية المثلية في حين أنها لم تستعمل إطلاقا مصطلح الشذوذ الجنسي. أما ما لم تتوقعه البتة فهو ذلك السيل من الشتم والقدح على صفحات الجرائد وعلى شبكة الإنترنيت، ومع ذلك فهي تتحمل مسؤولية كتاباتها كاملة مقتنعة أن الأديان ليست مسؤولة عن توظيفها السياسي والإديولوجي وأن القرآن بريء من الجرائم التي ترتكب باسمه كقتل غير المسلم أو الزواج ببنت عشر سنوات[44].

وربما تكون "نوال السعداوي" من الكاتبات المعاقبات كثيرا وبمختلف الطرق على ما اقترفته من نصوص، فمن السجن إلى النفي، ومن التكفير والتشهير بها إلى استباحة دمها! دفعت الكاتبة ثمن تحررها الفكري وهي التي لم تكن مناضلة بالقلم والكلمات فقط إنما كانت شجاعة حتى في مواقفها اليومية. أما في حياتها الشخصية فقد دفعت ثمن جرأتها على التمرد وواجهت أقرب الرجال في عائلتها، وقد كتبت عن ذلك قائلة: «أخي كان أكبر مني، وحين رفع يده عاليا ليصفعني رفعت يدي أعلى من يده وصفعته. ولم يكررها. وحين أراد زوجي الأول أن يلغي وجودي ألغيت وجوده من حياتي. وحين صاح زوجي الثاني: أنا أو كتاباتي! قلت: كتاباتي! وانفصلنا. وحين انتفض وزير الصحة غاضبا: الطاعة أو الفصل! قلت الفصل! وفقدت منصبي»[45].

عوقبت نوال السعداوي بتهمة الكتابة بأساليب شتى، وما أغربها من تهمة في الثقافة العربية، لكن كما قالت بنفسها: «الجريمة الكبرى أنني امرأة حرة في زمن لا يريدون إلا الجواري والعبيد. وولدت بعقل يفكر في زمن يحاولون فيه إلغاء العقل»[46]. لم تكن تجربة السجن لتخيفها أو تخجلها بل شعرت بالزهو: «ولِم لا أزهو. دولة بوليسية بأكملها تخاف مني. من امرأة واحدة غير مسلحة. لم تعرف أصابعي إلا ملمس القلم. ألهذا الحد ترعبهم حروفي على الورق!»[47]. ورغم كل الذي كتبته تعترف قائلة: «مازلت غير راضية عن كتاباتي. فأنا لا أكتب بشكل حر، أو بالحرية التي أريدها (...) مازلت غير راضية عن نفسي. مازلت لا أملك حريتي. لم أكتب بعد الكتاب الذي أحلم به، ولا الرواية التي تعيش معي»[48].

وقد حامت حول السعداوي دائما الإشاعات والاتهامات التي تشوه سمعتها كتلك التي تحدثت عنها وهي في السجن: «في صباح أحد الأيام (يوم 23 نوفمبر 1981) فتحت إحدى الصحف (جريدة الأحرار) فقرأت في الصفحة الأولى أسماء بعض المتحفظ عليهم، وقرأت اسمي بينهم، وأن هؤلاء قد اتهموا بواسطة المخابرات العامة بتنفيذ مخطط سوفييتي تشارك فيه قوى الرفض لأحداث حالة من الفوضى بالبلاد من خلال المتاجرة بمشاكل الجماهير واذكاء الخلافات الطائفية واستغلال الجماعات الإسلامية وتحريض الشعب على القيام بثورة تتجه بالبلاد نحو الشيوعية»[49].

النساء المتمردات في الكتابة هن عادة نساء غير خاضعات في حياتهن الأسرية والاجتماعية ويفرضن خياراتهن. فبعد صدور رواية "رجالي" للكاتبة "مليكة مقدم" تبرأت منها عائلتها ونفتها من قريتها، فبنظرهم لم تجلب بكتاباتها سوى العار، وإلا كيف تكتب عن رجالها! والحقيقة أن العنوان لا يفهم منه بأن المقصود هم عشاقها حصرا بل ببساطة مجموع الرجال الذين تربت وكبرت معهم بدءا بالأب، وقد بدأت روايتها بجملة: «أبي هو رجلي الأول»[50]. ربما أدينت بسبب

الضمير المتكلم والمتصل بكلمة (رجالي) ولو أنها نسبته للضمير الغائب (رجالها) لربما أبعدت عنها الشبهة، لكن الكاتبة قصدت ذلك وهي تعرف جيدا أي نوع هم (رجالها)، لذا أصدرت العنوان كما أرادته تحديا وتبليغا لرسالتها.

وقبل هذه الكاتبة عانت كاتبات أخريات، فقد تمت محاكمة ليلى بعلبكي عام 1964 بتهمة الإخلال بالأخلاق العامة بسبب ملفوظات سردية تصور لحظة حميمية في قصة "حين تساقط الثلج" في قولها: "تمدد على ظهره وغاصت يده تحت الشراشف تنتشل يدي وترميها على صدره ثم تذهب في رحلة طول البطن". وتمت محاكمة الكاتبة "سهيل التل سلطي" عام 1987 بنفس التهمة بسبب جملة تضمنتها قصتها "المشنقة" التي قالت فيها: "ولا تعرف أن ما استسلمت له ليس إلا مشنقة كبيرة حبلها الذي سيلتف على عنقك لحظات ليس سوى عضو تناسلي كبير"[51]. ولا نزال إلى اليوم نسمع من حين لآخر بإدانة كاتبة أو شاعرة بسبب جرأتها في البوح عن نفسها في نص كتبته، وإن كانت الظاهرة أقل مما كانت عليه سابقا غير أنها لم تختفي، ثم إن الكاتبات اليوم استطعن بشكل ما فرض أنفسهن في عالم الكتابة وبدأن في التخلص تدريجيا من الخوف من الكتابة عن الذات، كما اكتسبن مناعة ضد كل استخفاف أو إدانة لنصوصهن.

الهوامش والإحالات

(1) جورج ماي، السيرة الذاتية، تعريب محمد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، قرطاج، ط1، 1992، ص217.

(2) نفسه، ص220.

(3) فيليب لوجون، السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، تر عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط1، 1994، ص22.

(4) Gérard genette, chapitre " introduction a l’archétexte" dans le livre de Gérard genette et autres, théorie des genres, Seuil, Paris, 1986, P155.

(5) Voir, Ibid , P155.

(6) Dictionnaire des genres et notions littéraires, Encyclopaedia universalis et Albin Michel, Paris, 1997, P53.

(7) Voir: Ibid, P50.

(8) للمزيد عن السيرة الذاتية والأجناس الأدبية القريبة منها ينظر القسم الثاني من كتاب جورج ماي، السيرة الذاتية، ص121 وما بعدها.

(9) فيليب لوجون، السيرة الذاتية، ص 22، 23.

(10) نفسه، ص 24، 25.

(11) Todorov, La Notion de Littérature et autres essais, Seuil, Paris, 1987, P45.

(12) إحسان عباس، فن السيرة، دار الثقافة، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص 102.

(13) عن دوافع كتابة السيرة الذاتية ينظر: جورج ماي، السيرة الذاتية، ص 47 وما بعدها. وينظر أيضا: إحسان عباس، فن السيرة، ص 107، 108.

(14) إحسان عباس، فن السيرة، ص 107.

(15) Dictionnaire des Genres et Notions Littéraires, P49 .

(16) عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1983، ص 114.

(17) عن ملامح السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم والحديث ينظر: تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط01، 2002، ص 37 وما بعدها.

(18) ينظر: محمد الباردي، عندما تتكلم الذات: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)، 2005، ص 17.

(19) نفسه، ص 16.

(20) ينظر: نفسه، ص 159.

(21) نفسه، ص 190.

(22) زهور كرام، السرد النسائي العربي: مقاربة في المفهوم والخطاب، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط01، 2004، ص50.

(23) نفسه، ص101.

(24) ينظر: شيرين أبو النجا، مقال "السيرة الذاتية النسوية"، مجلة نزوى، العدد 12، أكتوبر 1997، ص79.

(25) لطيفة البصير، سيرهن الذاتية: الجنس الملتبس، محاكاة للدراسات والنشر، دمشق، والشركة الجزائرية السورية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، 2013، ص38.

(26) ينظر: جمانة حداد، هكذا قتلت شهرزاد: اعترافات امرأة عربية غاضبة، دار الساقي، بيروت، ط01، 2012، ص64، 65.

(27) ينظر: رجاء بن سلامة، نقد الثوابت: آراء في العنف والتمييز والمصادرة، دار الطليعة، بيروت، ط02، 2011، ص09.

(28) ينظر: هيفاء بيطار، نسائم الأفكار، مركز الناقد الثقافي، دمشق، ط01، 2010، ص95 وما بعدها.

(29) عن ظاهرة اختفاء الكاتبات وراء اسم مستعار ينظر: زهور كرام، السرد النسائي العربي: مقاربة في المفهوم والخطاب، ص55 وما بعدها.

(30) نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط02، 2006، ص150.

(31) وهو ما حدث مثلا مع الكاتبة المصرية "نوال السعداوي" التي عرفت السجن والنفي والمنع من النشر وحتى التهديد بالقتل بسبب أفكارها وكتاباتها حول المرأة، وكذا مع التونسية "ألفة يوسف" التي تعرضت لحملة شرسة بسبب كتاباتها، خاصة مؤلفها "حيرة مسلمة"، وهو كتاب أكاديمي تناولت فيه الكاتبة مسائل في الميراث والزواج والجنسية المثلية. للمزيد حول هذا الكتاب ينظر: ألفة يوسف حيرة مسلمة: في الميراث والزواج والجنسية المثلية، دار سحر للنشر، تونس، ط06، (د.ت).

(32) نوال السعداوي، المرأة والغربة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط02، 2006، ص47.

(33) نفسه، ص47.

(34) نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، ص218، 219.

(35) إبراهيم محمود، الضلع الأعوج: المرأة وهويتها الجنسية الضائعة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط01، 2004، ص29.

(36) عن صورة المرأة في الكتابات العربية المعاصرة ينظر: علي أفرفار، صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، دار الطليعة، بيروت، ط01، 1996، ص85 وما بعدها.

(37) حول هذه الصورة ينظر: نفسه، ص27.

(38) حول تناول هذين الخطابين لجسد المرأة ينظر: محمد عبد الوهاب يوسفي، جسد الأنثى بين الخطاب الديني والخطاب الإعلامي، دار الطليعة، بيروت، ط01، 2009.

(39) نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، ص270.

(40) ينظر: رشيدة بن مسعود، مقال "أقنعة الكتابة النسائية"، فضاءات نسائية(أشغال ندوة)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط01، 2001، ص42.

(41) زهور كرام، السرد النسائي العرب، ص52.

(42) ينظر: جمانة حداد، هكذا قتلت شهرزاد، ص118.

(43) نفسه، ص109.

(44) نفسه، ص109.

(45) نوال السعداوي، مذكراتي في سجن النساء، مكتبة مدبولي، مصر، ط02، 2006، ص13.

(46) نفسه، ص12.

(47) نفسه، ص14.

(48) نفسه، ص17، 18.

(49) نفسه، ص252.

(50) Malika mokeddem , Mes hommes, Edition Grasset, 2009, P11

(51) ينظر: رشيدة بن مسعود، مقال "أقنعة الكتابة النسائية"، فضاءات نسائية (أشغال ندوة)، ص45، 46.

المصادر والمراجع

1- الكتب

- إبراهيم محمود، الضلع الأعوج: المرأة وهويتها الجنسية الضائعة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط01، 2004.
- إحسان عباس، فن السيرة، دار الثقافة، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- ألفة يوسف، حيرة مسلمة: في الميراث والزواج والجنسية المثلية، دار سحر للنشر، تونس، ط06، (د.ت).
- تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط01، 2002.
- جمانة حداد، هكذا قتلت شهرزاد: اعترافات امرأة عربية غاضبة، دار الساقي، بيروت، ط01، 2012.
- جورج ماي، السيرة الذاتية، تعريب محمد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، قرطاج، ط1، 1992.
- رجاء بن سلامة، نقد الثوابت: آراء في العنف والتمييز والمصادرة، دار الطليعة، بيروت، ط02، 2011.
- زهور كرام، السرد النسائي العربي: مقاربة في المفهوم والخطاب، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط01، 2004.
- عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1983.
- علي أفرفار، صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني، دار الطليعة، بيروت، ط01، 1996.
- فيليب لوجون، السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، تر عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط1، 1994.
- لطيفة البصير، سيرهن الذاتية: الجنس الملتبس، محاكاة للدراسات والنشر، دمشق، والشركة الجزائرية السورية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط01، 2013.
- محمد الباردي، عندما تتكلم الذات: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)، 2005.
- محمد عبد الوهاب يوسفي، جسد الأنثى بين الخطاب الديني والخطاب الإعلامي، دار الطليعة، بيروت، ط01، 2009.
- نوال السعداوي، المرأة والغربة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط02، 2006.
- نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط02، 2006.
- نوال السعداوي، مذكراتي في سجن النساء، مكتبة مدبولي، مصر، ط02، 2006.
- هيفاء بيطار، نسائم الأفكار، مركز الناقد الثقافي، دمشق، ط01، 2010.
- Dictionnaire des genres et notions littéraires, Encyclopaedia universalis et Albin Michel, Paris, 1997.
- Gérard Genette et autres, Théorie des genres, Seuil, Paris, 1986.
- Malika mokeddem , Mes hommes, Edition Grasset, 2009.
- Tzvetan Todorov, La notion de littérature et autres essais, Seuil, Paris, 1987.

2- المجلات

- مجلة نزوى، العدد 12، أكتوبر 1997.

3- الندوات

- مجموعة باحثين، فضاءات نسائية (أشغال ندوة)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط01، 2001.